

دور أسيوط فى الصراع الإهناسى - الطبى خلال عصر الثورة الاجتماعىة الأولى

الأستاذ/ السىء أحمد محمد محفوظ
مدرس التاريخ القديم المساعء
كلية الآءاب - جامعة أسيوط

لعبت أسيوط دورا مهما على مسرح التاريخ المصرى فى شتى عصوره ، وإن غىب هذا الدور وأخفاء عوامل عدة ، وكان ذلك بفضل الملكات التى وهبها المولى عز وجل لهذه المدينة العريقة ، فهى الحلقة التى تربط جنوب الصعيد بوسطه ، هذا الموقع الذى أتاح لها أن تلعب دورا رائءا وقائءا ومحركا للأحداث ومحور لها .

من أهم هذه الفترات التى نعنيتها هى فترة إرتقاء اجتماعى ، نزعم أنها كانت من أهم الأحداث التاريخىة ؛ ذلك لأن لها دلالات تاريخىة أكثر من السير الملكىة أو سرد الأحداث ذات الدلالات التوسيعىة على سبيل المثال فى عصر الإمبراطورىة الأولى ، بل إن التغيرىات الاجتماعىة فى رأنا أهم من كئير من المنشآت المعمارية الكبرى المزىة ؛ الكبرى للحضارة المصرىة فى رأى كئير من الباحثىن كالأهرامات الضخمة أو المسلات الرشىقة أو حتى المعابد الفخمة .

فالتطورات الاجتماعىة - من وجهة نظرنا - هى الظواهر التاريخىة التى يجب أن يقف أمامها الءارس ويحللها مستوعبا لأحداثها وأسبابها ونواتجها ، لأنها تمثل التاريخ الحقيقى للشعوب والتى تظهر ذلك المحرك مانح الحضارة طابعها ، والقوة التى تروى بعرقها ودمائها أرض الحضارة الجرداء لتنتب أشجارا مثمرة وأزهارا متفتحة ، هذا المحرك وتكلم ؛ القوة هى الانسان المصرى .

وعوء على بدء فقد كانت هذه التطورات الاجتماعىة من الأهمية بمكان ويمكن إدراك هذه الأهمية من انعكاسها السياسىة والاقتصادىة والاجتماعىة ، بل إنه من الممكن أن نتخيل حجم تأثيراتها إذا ماأءركنا أن التغيرىات الاجتماعىة التى حدثت فى فترة الءراسة ، قد أءت إلى

لجهاز الحكومة المركزية فى عصر للدولة القديمة وماأدراك مالدولة القديمة ، فيكفى أن عين إنجازاتها ذلك الجهاز الإدارى الضخم الذى نجح فى تسخير كل موارد البلاد لخدمة الملك والجهاز المركزى الذى يمثل نسق ثيوقراطى يخدم نظرية الملكية الإلهية .

تلك الظاهرة التى قوضت دعائم الملكية الإلهية فى عصر الدولة القديمة ، عرفها المؤرخون باسم " الثورة الاجتماعية الأولى " وهم قد يختلفون حول توقيتها ويتباينون حول تحديد أحداثها ووصفها ولكنهم لا يختلفون حول أهميتها ودور الشعب المصرى فى إدارة دفعها .

إن الدارس لتاريخ مصر القديمة حين يصل إلى عصر الثورة الاجتماعية الأولى فإن عدة مشاكل تظهر أمامه وتحتاج منه إلى تمحيص ودراسة ، وأول ماخطر بباله نوافع هذه الثورة التى قام بها المصريون ضد ملكهم ، وهم يعتقدون فى ألوهيته ، وفى الحقيقة أن الثورة لم تكن ضد الملك وحده ، وإنما كانت ضد الكهانة ، بل الآلهة نفسها ، فضلا عن طغيان حكام الاقاليم ، وحدث كل ذلك فى أخريات الأسرة السادسة ، عندما وصلت حالة البلاد إلى درجة كبيرة من التردى جزاء وفاقا لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، فضلا عن عوامل نفسية وأخرى خارجية وكان الوعى الطبقي لدى أفراد الشعب وقتذاك قد وصل إلى درجة دفعهم إلى القيام بثورتهم المهمة (١) .

ولقد واكبت هذه الثورة فترات حكم عواهل الأسرة السابعة والأسرة الثامنة ، وكان العصر الاناسى وحكم الأسرتين التاسعة والعاشرة إرهاصة الاستقرار وبشائر نهاية حالة الفوضى والاضطراب التى كانت تسود البلاد ، ولقد لعبت أسيوط وحكامها فى هذا العصر دورا رئيسا ومحركا للأحداث ومعلنا عن أهمية المدينة العريقة فى هذه المرحلة المبكرة .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل الدور الذى لعبته أسيوط فى الصراع الإناسى - الطبى ، علينا أن ندرك بداية مبررات هذا الدور ودوافعه ، فمنذ النصف الثانى من الأسرة الخامسة بدأ حكام الاقاليم يستأثرون بالسلطة فى أقاليمهم ، ومن النواحي الإدارية والقضائية والدينية ، وقد جعل بعضهم وراثه الحكم فى أعقابهم قضية مسلما بها ، وترتب على ذلك مايتوزب على نظام الحكم الوراثى عادة من احتمال ولاية وريث الحكم منصبه فى سن الطفولة ، ويكون كل حاكم

من أولئك الحكام جيشا محليا وأسطولا محليا بما يناسب إمكانيات إقليمه ، وصورت مناظر مقابرهم كثيرا من مناظر الحرب والاستعداد لها(٢) .

فعثر في أسبوط على ماعرف اصطلاحا بالنماذج وقد استخدم المصري هذا الأسلوب في نهاية مرحلة الدولة القديمة في نهايتها لصعوبة الزخرفة على سطوح الجدران المنقورة في الصخر ولدينا مجموعتان من تماثيل صغيرة أو نماذج خشبية تمثل بعض فرق الجيش الإقليمي لحاكم من أسبوط يدعى " مسحتى " وتألفتا من مجموعة مكونة من عشرين جندي مسلحين بالحراب والدروع الكبيرة على شكل تروس ، والمجموعة الأخرى مؤلفة من أربعين جندي أيضا ومسلحين بالأكفوس والسهام ، وقد وزعت كل مجموعة على عشرة صفوف في كل صف أربعة جنود وإن لم يرتبوا حسب أطوالهم ولم يميز بعضهم من ناحية الزى أو الشكل عن البعض الآخر مما يعنى أنهم كانوا جميعا من نفس الرتبة(٣) .

ويشير عبدالعزيز صالح إلى أن أفراد هذه الحاميات كانوا يلقون معاملة طيبة من حكامهم ، ويدربون تدريبا مناسباً ، ويضمون أحيانا مرتزقة من النوبيين لحراسة الحواف الصحراوية ، غير أن وجودهم تحت إمرة حكام الأقاليم مباشرة كان يشجع هؤلاء الحكام على التنافس المسلح فيما بينهم ويدفع أقرباءهم إلى محاولة السيطرة على أصحاب الإمكانات المحدودة من جيرانهم(٤) . فضلا عن أنها تتيح لهؤلاء الحكام القوة لفرض كلمتهم وسلطانهم حتى على الحكومة المركزية ولم تكن القوة وحدها التي أتاحت لحكام أسبوط لعب هذا الدور الخطير ، ولكن تتيح نقوش مقابر أسبوط لنا الفرصة لنلقى نظرة على ماكانت عليه ثروة حاكم الأقاليم ، وهذه الثروة كانت من نوع شديد التعقيد لأن الأراضى والدخل الذى انتقل إليه بالوراثة عن أجداده - أو عن " بيت أبيه " كما يطلق عليه كان منفصلا دائما عن " بيت الأمير " ، أى عن الأراضى والدخل الذى كان يعطى لديوان الأمير فالنوع الأول كان ملكا خاصا له يستطيع أن يتنازل عنه أو يتصرف فيه كيفما شاء ، على حين أن الآخر كان نوعا من الإقطاع التى أقطعها الملك له ، فإذا تصرف فى أجزاء صغيرة من " بيت الأمير " لآخرين فإن ماتصرف فيه من هبات لم يكن له سند من القانون .

وعلى أية حال فقد كان هذان النوعان من الأراضى مع ماعليها من خدم وماشية وحدائق وغيرها تولف أملاكا ضخمة ، يضاف إلى ذلك كل ماكان يحصل من ضرائب ومكوس فكان حاكم الأقاليم يأخذ فحذا من كل عجل يقدم قربانا ، كما كان يتسلم نصيبه من العجول التى

تضحى فى المعابد ، وكان يرسل كهنة الساعات فى المعبد أبقارا كاملة وأغناما إلى "مخازن الأمير" ، فضلا عن الربيع الثابت من أملاك المعبد بفضل انتمائه إلى مجمع الكهنة . كل هذه الثروة المتنوعة المصادر كانت عادة تتجمع فى يد شخص واحد هو حاكم الأقاليم^(٥) .

فإذا اجتمع لدى حكام أسبوط مزايا القوة والثروة إلى جانب الموقع المتوسط كان طبيعيا - بل ونزعم أنه كان حتميا - أن يلعبوا دورا رئيسا فى عصر ساعدهم فيه ضعف الحكام وتخاذلهم وشيخوخة الجهاز الإدارى وتأكله رغم ترهله ، من هنا دعيت الظروف أسبوط للعب هذا الدور التاريخى الذى مازالت مؤلفاتنا ودراساتنا تذكره بكل فخر وإعزاز .

وسنعرض الآن جدولاً للترتيب الزمنى للأسر مع أسماء حكام أقاليم مصر الوسطى^(٦) لتوضيح موقع حكام أسبوط التاريخى من مجرى الأحداث

إهناسيا المدينة	طيبة	أسبوط	الاشمونين
٢١٣٠ نفر كارع - مري ايب رع	سهرتاوى انتف الاول	خيتى الاول	جحتوى نخت الثانى
٢١١٨ واح كارع خيتى الثالث	واح عنخ انتف الثانى	تف ايبى	جحتوى نخت الثانى
٢٠٧٠ مري كارع		خيتى الثانى	

ويبدأ الصراع مع انتقال الحكم فى إهناسيا^(٧) إلى الأسرة العاشرة وكان "مري حتحور" هو مؤسس الأسرة وأول ملوكها وقد عرفناه من نص مشوه عثر عليه فى محاجر حتتوب^(٨) ويعتبره محمد بيومى مهران ملكا منفصلا عن خليفته "نفر كارع" الذى ورد اسمه فى بردية تورين^(٩) على أن أحدث الآراء فى هذا السياق تعتبر أن "نفر كارع" هو مؤسس الأسرة وكان سابغ ملك يحمل هذا اللقب وأطلق عليه مخربش من حتتوب لقب "مري حتحور"^(١٠) وربما يقرأ "مرايب رع"^(١١) وتبعه "واح كارع - خيتى الثالث - مري كارع" .

وقبل هذا الوقت بقليل أيام الأسرة التاسعة يظهر على سطح الأحداث قطب آخر هو إقليم طيبة^(١٢) الذى يبدو أن حكامه قد انتقلوا إليه من مسقط رأسهم أرمنت وقد حاولوا أن يرثوا زعامة الصعيد بعد أن ولت عنه زعامة فقط ، واشتهر أولئهم باسم الأئاتقة ؛ نظرا لتسمى

أغلبهم باسم " إينيتف " Init.f. وكانوا على جانب كبير من الحذر ، فلم يدعوا لأنفسهم فى بداية أمرهم ملكا صريحا ولم يتلقبوا بالقباب الملوك واكتفوا لأنفسهم بالقباب الإمارة ، وبلغوا من حيلتهم أن هادنوا ملوك إهناسيا وربما اعترفوا لهم ضمنيا بسيادتهم أو على الأقل لم ينازعوهم فى البداية سيادتهم بعد أن تبينوا أنهم يفوقونهم سلطانا وقوة وأنها استطاعت أن تمتد نفوذها إلى منطقة منف نفسها (١٣) .

ومع انتقال الحكم فى إهناسيا إلى الأسرة العاشرة ، أحس البيت الطيبى بأنه لا يقل فى أحييته للملك عن ملوك الشمال ، فأعلن أمراءه عدم طاعتهم لإهناسيا (١٤) . وبدأوا يكونون مع جيرانهم الأقربين تحالفا ضد الحكام الجدد فى الشمال بزعامة " إينيتف " ، سهرتاوى (١٥) .

وقد دعم حكام طيبة موقفهم خصوصا بعدما نجح " إينيتف الأول " فى الانتصار على " عنخ تفى " حاكم إقليم " نخن " (١٦) والموالى لإهناسيا (١٧) وامتد نفوذه من فقط على أقل تقدير ليشمل ديندرة والأقاليم التى كانت تحت سيطرة " نخن " (١٨) .

أما حكام إهناسيا ، فشأنهم شأن سائر الحكام الضعاف ، كان عليهم أن يدعموا ملكهم بالتحالف مع بعض حكام الأقاليم الأقوياء ، والواقع أن سلطان ملوك إهناسيا كان ضئيلا بل ومنعدما فيما خلف حدود أبيدوس وشمال ذلك أيضا ويرجع ذلك إلى أن الحكام المحليين فى أسبوط وإن كانوا يدينون بالولاء لملوك إهناسيا إلا أنهم كانوا فى واقع الأحوال أعظم منهم قوة وأعز نفرا وستثبت الأحداث أنهم كانوا يعملون جهد طاقتهم للحفاظ على الكيان الملكى الإهناسى المتهاك المتداعى (١٩) .

واستغل حكام إهناسيا صلتهم القوية بحكام أسبوط كى يدعموا بهم قوتهم فى مرحلة الصراع الثانية والحاسمة مع طيبة ، وكانت جنور هذه الصلة متمثلة فى العلاقات القوية بين البيتين منذ عصر " خيتى الأول " حاكم أسبوط الذى تولى حكم الإقليم ، ولم يزل بعد فى المهد صبيا فكفله أمة كوصية عليه وعلى حكم الإقليم الذى ورثه بعد وفاة جده لأمه (٢٠) .

ثم تعهده حاكم إهناسيا متتبعا فى ذلك سياسة بعض ملوك الدولة القديمة فى تربية أبناء الحكام الأقوياء فى قصورهم ليشبوا أوفياء لهم وفى ذلك يحدثنا " خيتى الأول " أمير أسبوط فيقول : " لقد كنت محبوبا من الملك ، ثقة فى أمرائه ، ومجدا فى مصر الوسطى ، وقد أدى

ذلك لأن أحكم وأنا طفل طوله ذراع ، ولقد رفع منزلتي في شبابي ، وتعلمت السباحة مع أطفال الملك ، وكنت شخصا جادا في حديثه ، مبرأ مما يسمى سيده الذي رباه طفلا ، ولقد سعدت بحكمي ، وشكرت إهناسيا الإله بسببي ، وقالت مصر الوسطى والدلتا " تربية ملك " (٢١) .

أما عن الدور الذي أداه فهو غير محدد وإن ذكر أنه كان له جيش وأسطول مؤلف من سفن عظيمة وقد جعلها في خدمة مليكه كما إقتضت الأحوال ذلك بمعنى أن كل ما أسداه للملك هو تكوين قوة من الجند وبناء أسطول نهري .

ويظهر من الأحداث هنا أن مقاطعة أسيوط عاشت أكثر من غيرها في خضم الوقائع إذ كانت في قلب المواجهات ، ويمكن متابعة تاريخها ابتداء من حوالي ٢١٣٠ ق.م في عهد الأمير " خيتي الأول " والذي كان مواليا للبيت الإهناسي ومنغمسا في هذا الولاء ، حتى اسمه الذي حملة إنما كان تغييرا صادقا عن مدى الولاء الذي كان يكنه لهذا البيت .

وهو بجانب إنجازاته السياسية والعسكرية يتفاخر بأنه جنب إقليمه ويلات المجاعة فلجأ إلى تقنين توزيع المواد الغذائية . بل إنه وسع الرقعة الزراعية بفضل سياسته الحكيمة في مجال تنظيم الري (٢٢) .

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الأحلاف من حولها ، وربما نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانتها ، وعلى صلابة رجالها الصعيادة وعلى إنكاء روح الأمل فيهم (٢٣) .

وبدأ الصراع بين إهناسيا وطيبة في صورة خفية أول الأمر ، ثم سرعان ما اتخذ صورته المكشوفة بعد ذلك ، فلقد نجح حاكم طيبة " واح عنخ ، انتف الثاني " والذي ورث الأقاليم الخمسة الجنوبية خلفا " لسهرتاوي " ، والذي استمر حكمه قرابة الخمسين عاما ، نجح في أن يمد حده الشمالي قريبا من أحميم (٢٤) وكوم إشقوا (٢٥) غربي النيل أي حتى الأقليم التاسع شرق النيل والأقليم العاشر غرب النيل (٢٦) .

ولقد كان مكسبه الكبير فى هذه الخطوة الأولى من المرحلة الثانية للصراع وتقدمه الظافر للشمال ، هى مدينة أبيدوس (٢٧) ، ذات الأهمية الدينية التى اكتسبتها من وجود المعبد الأوزيرى من عهد الدولة القديمة ، ووجود مقابر الملوك الأوائل الرمزية فى الصحراء خلفها ، فضلا عن رحلة الحج المقدسة التى كان يفد إليها فيها الناس من كل حذب وصوب ، الأحياء منهم والأموات على حد سواء (٢٨) . فضلا عن أنها كانت تمثل بالنسبة له بوابة الشمال ، فى ذات الوقت التى كانت فيه بالنسبة لملك إهناسيا وحكام أسيوط تمثل قلعة باب الجنوب (٢٩) . ومن ثم فقد توفرت لها بذلك أهمية دينية وعسكرية لكلا الطرفين .

وفى خضم أحداث الصراع يختفى الأمير " خيتى الأول " حاكم أسيوط وولى حكم الإقليم " تيف إيبى " الذى سار على نهج أبيه وسلفه فى الإصلاحات الداخلية وواصل القتال ضد طيبة لحساب الملك " خيتى الثالث " ، وفى عهده بلغ الإقليم مستوى رفيعا من الرخاء والازدهار فى عهد " مرى كارع " الملك الإهناسى الذى أقام الأمير " خيتى الثالث " حاكما : فقام بتريم معبد أسيوط وجمع جيشا لا يستهان بقوته (٣٠) .

وما يمكن أن يضاف هنا أن المجابهة بين الشمال الإهناسى الأسيوطى والجنوب الطيبى لم تكن حربا ضروسا مستمرة ، بل كانت بالأحرى حالة من السلم المزعزع . فاستغل كل معسكر هذه الأوضاع لتدعيم مركزه . وعليه فلقد ولت وانتهت تلك الأيام التى انتشرت فيها المجاعة وعمت القلاقل الاجتماعية وسيطولى المنتصر من المعسكرين توحيد بلاد كانت قد استعادت قواها على وجه اليقين .

وفى ظل صراع الإخوة تمتع حكام مصر الوسطى وبخاصة أسيوط وما حولها بحالة من الاستقلال الداخلى تحت رعاية ملوك إهناسيا وظلوا على تفاخرهم بأعمالهم فى الوقت نفسه ، وأشبع فيهم أهل إقليمهم حبهم للشهرة ، فمدح أحد كتبة أسيوط الأمير " خيتى " بن " تقيى إيبى " الذى يتفاخر بأنه سليل حاكم وابن بنت حاكم ، بقوله : " ما أجمل ماتم فى عهدك ، لقد رضيت المدينة بك ، وما كان مستغلقا على الناس جعلته مكشوفاً مباحاً من تلقاء نفسك " عن رغبة منك فى إسعاد أسيوط ، لقد جعلت كل موظف يستقر فى منصبه ، وما عاد أحد يقتتل أو يطلق سهمه ولم يعد طفل يلقى حتفه بجوار أمه ولا مواطن بجوار زوجته ، بعد أن هداك رب مدينتك الذى أحبك " (٣١) .

واستمر الصراع نحو ثمانين عاما أوزيريد وكانت سياسة إهناسيا إزاء حكام الأقاليم الموالين لها قد أنتت أكلها ، فنفعوها فى تنافسها ، واعتادوا على أن يؤكدوا فى نصوصهم ولاتهم للتصير الملكى وإن لم ينكروا اسم الملك غير مرات نادرة وكان من أكبر أولئك الحكام : حكام أسبوط فيذكر " تيف إيبى " فى نصوص مقبرته :

" استمعوا إلى أهل الغد ، لقد كنت سخيا مع الناس جميعا سديد الرأى ، نافعا لبلده ، سمحا مع الشاكى ، إذا جن الليل (اطمأن) النائم فى الطريق ودعالى وأصبح شأنه شأن من نام فى داره تحرسه هيبة عسكرية "

وأعلن الرجل مبدأ أهم من هذا فأعلن إيمانه بأن الشخص النبيل هو الذى يستطيع أن يتفوق بمآثره عن مآثر أبيه وأن جزاءه على ذلك سوف يكون الرحمة فى الآخرة ، وتمكين الحكم فى أسرته بحيث يرثه ولده فى قصره ، فضلا عن حسن سمعته فى بلده ، وتعظيم الناس لتمثاله بعد موته (حين يحمل فى المواكب العامة) (٣٢) .

وظلت الحرب سجالا بين الطرفين وباتت الحدود بينهما بين مد وجذر ولا زالت خطوات هذه المعارك وتفاصيلها غامضة ومستغلقة علينا إلى حد كبير ولا نعرف عنها إلا النذر اليسير ، ولكن يبدو أن مراحلها الأولى انتهت بانتصار ملك إهناسيا على معاصريه من أمراء طيبة بمساندة حاكم أسبوط " تيف - إيبى " بعد أن دارت بين جيشهما معارك عدة فى منطقة تسمى " أبيدوس " أدت إلى تخريب جبانته القديمة وبعض أماكنها المقدسة وإنتهت بسيطرة إهناسيا عليها حوالى عام ٢٠٦٥ ق.م (٣٣) .

وقد كتب ملك إهناسيا " خيتى الثالث " فى تعاليمه لابنه إشارتين إلى النزاع الذى قام بينه وبين أمير طيبة ، الذى كان يعد من رعاياه فى الظاهر ، وفى الإشارة الأولى نجد .
" أن مصر تحارب فى الجبانة وتخرب المقابر وقد فعلت ذلك بنفسى ، وقد حدث فعلا هذا " .

وهى إشارة إلى انتهاك حرمة المقابر ولابد أنها تشير إلى جبانة أبيدوس المقدسة وعنها يقول الملك :

" إننى استوليت عليها بالهجوم كالصاعقة " وبعد ذلك بقليل يقول " خيتى " : " تأمل لقد حلت فى زمنى كارثة خربت أحياء طيبة وقد حدث ذلك فعلا ، وقد كنت أنا السبب وقد

أحسست بجرمي بعد أن اقترفته وكان ذلك من سيئاتي ، فاحذر ذلك لأنه من عمل سيئة يجزى مثله (٣٤) .

أما حقيقة ما حدث فهي غير واضحة لأن المتن غامض ولكن يمكن أن نستقرأ ما حدث من بين السطور على أساس أن كلا من " خيتي " ملك إهناسيا " وإنتف عا " أمير طيبة يدعى لنفسه السلطان على طيبة وجبانتها بأبيدوس وكان ملك إهناسيا يؤازره " تيف إيبي " أمير أسيوط وهما يعتقدان أن هاتين المنطقتين يعدان حصن باب الجنوب لأمالكهما .

والمرجح أنه قامت بعض المشاحنات بين القابضين على إدارة تلك الجهة من كلا المتخاصمين ، مما أدى إلى نشوب حرب وجعل " خيتي " يشير في تعاليمه لابنه إلى هذا الحادث الأليم ، إذ كانت نتيجته أن نهبت المقابر المقدسة عندهم والتي كانت في تلك الجهة ، وقد حزن " خيتي " لإرساله الجنود الذين ارتكبوا تلك الفظائع ، وقد شعر بجرمه ، غير أنه لم يكن يعلم الحقيقة إلا بعد وقوعها ، ولاغربة فإن كل البلاد - لابد - قد ارتاعت من تخريب الأماكن المقدسة التي كانت تعد أقدس بقعة مقدسة في البلاد المصرية قاطبة .

وقد انتهر " إينتف " هذه الفرصة ليؤكد لعدوه ، إذ حمل مسئولية تخريب الأماكن المقدسة ونهبها على جنوده وأعوانه مما أشعل نار الغضب في قلوب الشعب ضد " خيتي " مناهضة ومن هذا العهد نجد أن " إينتف " أخذ يحمل لقب " حور " فأطلق على نفسه " حور واح عنخ " ، انتف عا " وقد قام " إنتف عا " بحملة نبيلة في أسطول سار به شمالا مظهرا العصيان الصريح ضد ملك البلاد لينتقم لنفسه وشرفه ودينه ولكن محاولته هذه كان مآلها الفشل التام (٣٥) .

وفي ذلك يقول أمير أسيوط " تيف إيبي " (٣٦) :
" إن أول مرة حاربت فيها جنودي المقاطعات الجنوبية طاردوا فيها الأعداء إلى أقصى الحدود الجنوبية ، وعندما وصلت إلى المدينة هزمت الأعداد وأقصيتهم حتى حصن باب الجنوب " .

وقد حاول قائد " إينتف عا " كرة أخرى أن يغير على أملك ملك إهناسيا فكان نصيبه الفشل التام والهزيمة المنكرة .

وتقص علينا النفوش نقلا عن أمير أسيوط(٣٧) : " وقد جاء آخر كأنه الفهد المقدس بجيش مؤلف من أحلافه لملاقاته ، ولم أتوان لحظة عن منازلته فى سفنى وقد حاولت استخدام ربح الشمال وريح الجنوب وكذلك الريح الشرقية والريح الغربية حسب الأحوال الجوية ، وقد انتهت هذه المعركة بأن غرق العدو وسفنه فى النيل وكانت جنوده تفر كالثيران عندما تواجهها الحيوانات المتوحشة رافعة ذبولها إلى الأمام " .

ومع تقدير عامل المبالغة وحب تمجيد الذات فى مثل هذا السير ، يمكن أن نخرج بعدة حقائق منها أن هذه الواقعة أول موقعة بحرية تتم على صفحة النيل ، وربما كانت أول موقعة بحرية - حسب ماورد من مصادر - فى التاريخ وهى بهذا تسبق حروب " رعسيس الثالث " البحرية فى الدولة الحديثة .

وكان " خيتى الثالث " آخر ملوك إهناسيا العظام ، واتسمت سياسته النظرية بقدر كبير من الحكمة ولكنها على ما يبدو - لم تلق نجاحا كبيرا فى الخارج(٣٨) ، ويظهر ذلك من الهيكل الجنائزى الذى إكتشفه " ماربيت " عام ١٨٦٠ فى منطقة الطارف بجبانة طيبة لـ " إينيتف الثانى " وبداخله نصب دون عليه ملك طيبة المرحلة المعاصرة لحكم " خيتى الثالث " وبداية نهاية الحكم الإهناسى والبيت الأسيوطى الموالى له فيقول(٣٩) .

" لقد نقلت الحدود الجنوبية (لمملكتى) حتى إقليم واجت (الإقليم العاشر) ، لقد استوليت على أبيدوس والمناطق المحيطة بها وأقيمت شتى قلاع إقليم " واجت " فصارت بوابة لمملكتى .

ويبدو أن الامير الطبيى لم يقنع من الغنيمة بالإياب وهو الذى رأيناه يتقدم تارة ويتعثر أخرى فى عناد وبأس ؛ لذا فمن المرجح أنه عاد مرة أخرى واستعاد أبيدوس حسب المصدر السابق حتى إذا ما مات كانت هذه المدينة المقدسة فى أيدي أمراء بيته .

والجدير بالذكر أنه لو كان الأمر مقصورا على مجرد صراع حاكمى إقليمين من أقاليم مصر ، لكان المنتصر قد قنع بنصره وعاد أدراجه إلى عاصمته ، بعد ما تم له النصر المؤزر ، إلا أن الأمر كان جد مغاير لذلك ، إذ أن " منتوحتب الأول " الحاكم الطبيى لم يكن قانعا بتلك السيادة الجزئية على مصر ، لذا فقد تقدم نحو الشمال ويبدو أنه نجح بادىء ذى بدء

فى إسقاط أسبوط ، السند القوى لإناسيا ، ثم اتجه نحو إقليم إناسيا ذاتها معقل خصومه ومقر حكم الأسرة العاشرة ، حيث أطاح بحكمها ، مقررا بداية عصر جديد .

ومن كل ماسبق بعيننا فى هذه الدراسة موقف حكام إقليم أسبوط وهم " خيتى الأول " و " تيف الثانى " و " خيتى الثانى " ووقوفهم إلى جانب إناسيا كحليف قوى حمل على عاتقه عبء مواجهة التقدم الطبى حتى اندحر إقليمهم أمامه وقد تمسكوا فى تعاقبهم على حكم الإقليم بذلك التحالف فيما يشبه اتفاقا وديا أو التزاما غير معلن إذ كانوا يمثلون منطقة حاجزة بين إناسيا وطيبة ، وهو تحالف ذهب البعض فى تعليقه إلى كونه لا يرجع إلى علاقات الصداقة القوية فحسب ، بل ربما تعداه إلى صلة القربى بين العائلتين ، وهى الصلة التى ربما كان " خيتى الأول " يختلف على أساسها على القصر الملكى ليربى بين أبناء الملك الذى عينه - فيما بعد - حاكما على الإقليم (٤٠) .

ولقد تحلى حكام أسبوط مثل أقرانهم ، بالألقاب الشرفية . إذ تلقب ثلاثتهم بالألقاب " الأمير الوراثى ، الحاكم الكبير للإقليم ، حامل الختم الملكى ، السмир الوحيد ، الكاهن الأعلى للإله وب واوات ، رب أسبوط " (٤١) .

كذلك فإن تدخلهم الفعلى فى الصراع لم يجعلهم بغضون الطرف عن الإصلاحات الداخلية فقام خيتى بشق قناة فى إقليمه كان لها أكبر الأثر فى مده بالمياه اللازمة فى فصل الجفاف ؛ مما مكنه من رى الإقليم وزيادة نماته وقد تحدث عن هذا الرخاء فقال (٤٢) . " لقد كان لدى حبوب كثيرة ، وعندما دعت الحاجة إليها وزعتها على المدينة وسمحت لكل مواطن أن يحمل الحبوب لنفسه وزوجته وكذلك الأرملة وابنها وأكملت كل نقص لم يكن مستوفيا فى عهد آبائى . ومألت (المراعى) بالقطعان (كل) رجل أصبح لديه أغنام كثيرة ، وكان البقر يلد كل مرة اثنين وكان بين صغاره كثير من العجول " .

أما " تيف - إيبى " بن " خيتى الأول " فمن منطلق إسهامه بالنصيب الأكبر فى مواجهة الطبيين فإنه لم ينس هو الآخر أن يفخر بنفسه فيقول (٤٣) : " إنى باسط يدى لأى فرد ، لأننى صاحب نوايا طبية ، نافع لمدينتى ، محب للمودة ، طلق الوجه للأرملة ، فأنا النبيل لأهله ، وعندما يجن الليل ، يمدحنى من ينام فى الطريق لأنه أصبح أمنا كالرجل فى داره ، فالخوف من جنودى خير حام له ، وعندما يخلفنى ابنى سيصبح المواطنون

(تحت سلطته) وسيحكم كطفل بيد (طولى) ، وسوف تنعم البلاد فى عهده وستذكر الأفضل ، لأى نبيل يفعل صنيعا للناس ويفوق بصنيعة من يخلفه ، وسوف يبجل من الآن فصاعدا ، وسوف يظل ولده فى دار أبيه ، وسوف تصبح ذكراه عطرة فى المدينة ، وسيعظم الناس تمثاله ، و(سيحفظه) أبناء بيته " .

ولقد قام خلفه " خيتى الثانى " بإعادة بناء معبد الإله " وب واوات " الإله المحلى للإقليم ، وهى فيما نعلم أول سابقة من نوعها يقوم فيها الحاكم ببناء معبد إرضاء لإله إقليمه ورغبة فى تحقيق الخلود المنشود ، وإلى جانب قيامه بتزديد المثل الأخلاقية العليا التى ردها سلفه فى سيرته الذاتية ، فقد حرص على الإشارة إلى التزامه بالأخلاقيات والتعاليم وسجل ذلك فى نقوش مقبرته قائلا(٤٤) :

" كان كل موظف يعمل فى وظيفته بلا مشاحنات ولا خراب بالسهام ولم يقتل طفل فى جوار أمه أو مواطن بجوار زوجته ، ولم يكن هناك عمل سىء ، ولم يقم أحد بعنف ضد مدينته ، مدينة الإله " .

ونقوش مقابر أمراء أسبوط لم تلق الضوء بشكل واضح على الصراع الإهناسى - الطبى فحسب بل أنها تمكننا من تتبع قواعد الوراثة الإقطاعية خطوة بخطوة . فلقد كان من حق أكبر أبناء حاكم الإقليم أن يخلفه بقية الأبناء المتعاقبين على حكم الإقليم وفقا لنظام البكورة . فإذا ما توفى آخر الأخوة فإن أمر الإقليم يؤول إلى أكبر أبناء حاكم الإقليم ، وهكذا .

أما فى حالة عدم وجود أبناء ذكور فإن وراثة الإقليم تصبح من حق الابنة الكبرى دون أن يصبح لها الحق فى ممارسة السلطة ، أما إذا كان آخر ذكر من سلالة حاكم الإقليم قد أعقب قبل وفاته ولدا قاصرا ، ففى هذه الحالة تقوم أمه بانتحال لقب الإمارة كوصية عليه ليخول لها الحق فى إدارة ممتلكات زوجها بالإقليم وتظل قائمة بالإمارة حتى يصبح ابنها قوى الذراع أى يشب عن الطوق ويبلغ سن الرشد(٤٥) .

وأخيرا فالهدف من إلقاء هذا البحث هو إبراز دور أسبوط فى مرحلة مهمة من مراحل التاريخ القديم ، والواقع أن الدراسات الأثرية أو دعنا نقول التاريخية وبمعنى أشمل الدراسات الإنسانية قاصرة فى هذه المدينة الكبيرة رغم وجود هذه الجامعة العريقة التى نحن فى رحابها الآن .

وهى كلمة حق نقولها فى هذا المحفل الموقر أمام جمع مهيب من علماء مصر الأفاضل
فنحن من هذا المكان ندعو القائمين على إدارة الجامعة صونا لثراث أسبوط الأثرى والتاريخى
ورغبة فى وضع أسبوط فى موضعها المفروض من التاريخ والآثار ، فدعونى أيتها السادة
الأساتذة أؤكد أن آثار أسبوط فى أهميتها الحضارية والتاريخية فضلا عن أهميتها الاقتصادية
المرتقبة إذا ما وضعت على خريطة السياحة المصرية - لا تقل بأى حال من الأحوال عن
محافظة المنيا بل تعد لها وتكاد تفوقها .

فكاتب هذا البحث يدعوكم إلى زيارة مقابر " مير " أو مقابر الهمامية أو لجبل أسبوط
الغربى أو لمتحف الأمريكان أو غيرها من الأثرية المهمة ، بل أننا نؤكد أن أعمال الحفائر فى
أسبوط ستظهر كثيرا من الوثائق التاريخية والآثار التى ربما ضيعناها بدعوى الإنشاء
والإعمار ثم بإهمال متابعة ومراقبة هذه الإنشاءات وتجاهل الحفائر الأثرية فى هذه المواقع
فكأننا بذلك نعارض هدف دولتنا الأكبر وهو التنمية الممتدة وضياعنا بأيدينا أمانة حملتها لنا
الأجيال السابقة لنوصلها إلى أبنائنا وأحفادنا سليمة ، فدعونا لا نفرط فى تراثنا وماضينا
المشرق علنا نجد فيه ما يضيء طريق تنميتنا ومستقبل بلادنا .

لذا كان واجبا على جامعتنا العريقة أن تفتتح قسما للآثار المصرية تلقى على عاتقه أعباء
الحفاظ على آثار أسلافنا ودراستها وتسجيلها ونشرها نشرًا علميا قبل أن يقضى الزحف
العشوائى على آمالنا وطموحاتنا .

الهوامش

- ١- محمد بيومى مهران : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، الاسكندرية ،
١٩٩٣ ، ص ٤٩٦
- ٢- عبدالعزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ .
- ٣- CGC 257 , CGC 258
- ٤- عبدالعزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
- ٥- ادولف إرمان وهرمان رائكه : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمه
عبدالمنعم أبوبكر وراجعه محرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٨٩ .
- ٦- نيقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجائى مراجعة زكية طبوزاده ،
القاهرة ١٩٩١ ، شكل ٦٨ .

- ٧- إهناسيا : هى الأقليم العشرون من أقاليم مصر العليا وإسمه " نعر - خنتى " وإسم عاصمته " نن - نيسوت " وفى اليونانية هيراقليوبوليس وإله الأقليم هو " حر - شف " M.G. Mokhtar ; Ihnasya El-Medina , in : BE 40 (1983) .
- ٨- R.Anthes ; Die Felsninschriften von Hantub, Leipzig 1928, pl.7, p.14
- ٩- محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ٥٣٠ .
- ١٠- J.Vercoutter ; L'Egypte jusqu'a'la Fin du Nouvel Empire , in : P. Leveque, p . 143 .
- ١١- LA VII , p. 1441, h.5.
- ١٢- طيبة : هو الأقليم الرابع من أقاليم مصر العليا وإسمه " واست " وعاصمته " واست " أما إسمه اليونانى ديوس بوليس ماجتا أو طيبة وألهتها أمون وموت وخونسو إلى جانب مونتو والإسم الحديث الأقصر .
- ١٣- عبدالعزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
- ١٤- أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٨٤ .
- ١٥- حسن محى الدين السعدى : حكام الأقاليم فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الوسطى ، الاسكندرية ١٩٩١ ، ص ١٦٣ .
- ١٦- نخن : هو الأقليم الثالث من أقاليم مصر العليا ومدته هى نخن ونخب وإبونيت وأسمائهم اليونانية هى هيراقيو بوليس وليتوبوليس وألهته هى حور ونخب وخنوم والإسم الحديث هو البصيلية بأدفو
- ١٧- نيقولا جريمال : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
- ١٩- سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٤١٧
- ٢٠- J.H. Breasted ; Ancient Records of Egypt , I, Parg. 189 .
- ٢١- Ibid . Parg . 190
- ٢٢- جريمال : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .
- ٢٣- محمد بيومى مهران : المرجع السابق ، ص ٥٤٥ .
- ٢٤- أخميم : هو الأقليم التاسع من أقاليم مصر العليا وإسمه المصرى " مين " (خمم) وعاصمته " بر - مين " (إينو) وإسمه اليونانى بانوبوليس وإلهه مين .
- ٢٥- كوم إشقلاو : هو الأقليم العاشر من أقاليم مصر العليا وإسمه المصرى " وادجت " وأهم حواضره " بر - وادجت " " ودجو - قا " وإسمه اليونانى الفردويت بوليس - انتيو بوليس وألهته هى " وادجت " و " حور " .

- ٢٦- حسن السعدى : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .
- ٢٧- أبيدوس : هو الأقليم الثامن من مصر العليا واسمه المصرى " تا - ور " وعاصمته هى " تى " (أبجوم) وإسمها اليونانى ثينيس وإلهتها هو " خنتى - امنتى " - " أوزير " - " انحور " .
- ٢٨- WINLOCK : THE Rise and Fall of Middle Kingdom in Thebes , New York 1947 , pp. 12 - 13 .
- ٢٩- Ibid. , p. 16 .
- ٣٠- جريمال : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .
- ٣١- BAR, I , Parg . 404 .
- ٣٢- عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، Ibid. , Parg . 395
- ٣٣- عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ، op - cit, p. 10
- ٣٤- سليم حسن : المرجع السابق ، ص ٤٣٠ .
- ٣٥- المرجع السابق ، ص ٤٣١ .
- ٣٦- BAR , I , Parg . 405
- ٣٧- Ibid , Parg 406
- ٣٨- جريمال : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
- ٣٩- CGC 20512
- ٤٠- Hayes : The Scepter of Egypt , I, New York 1953 , p. 468
- ٤١- BAR , I , Parg . 179 .
- ٤٢- Ibid. , Parg . 189 .
- ٤٣- Ibid. , parg . 181 .
- ٤٤- Ibid. , Parg . 180 .
- ٤٥- Ibid. , Parg . 182 .

الاختصارات

- BAR : Breasted , G..H : Ancient Records of Egypt
- CGC : Catalogue General du Cairo .
- LA : Lescicon der Agyptologie .